الورقة السّابعة

عندما يدخلُ الثَّأرُ منَ الباب..
تخرُجُ العدالة منَ المِدخنَة.

مثل تُركي

كلَّما أسَاءَ إليَّ أحَدٌ..
أحاولُ أنْ أرفعَ روحي عاليًا،
بحَيثُ لا تستطيعُ الإساءَة أن تصِلَ إليها.

رينيه ديكارت

الثَّأر!

أتُراها فكرَةٌ سلبيَّة أم ايجابيَّة؟

أهوَ خَيرٌ أم شَرّ؟!

هل يَجوزُ الانتِقامُ أم لا؟! وهل هناكَ أنواعٌ منَ الانتِقامِ حَلال.. وأنواعٌ أخرى حَرام؟ ولو طُرحَتِ القضيَّةُ فلسَفيًّا سيَطلعُ لنا حتمًا وجهاتُ نَظَر مُختلفَة! وكذلكَ للدِّينِ رأيُهُ.. وربَّما آرَاؤُه، والمُحلِّلون النَّفسيُّون أيضًا والاجتِماعيُّون لديهم تَحليلاتٌ شَتَّى حَولَ مفهوم الثَّأر. ومثل أيِّ آيديولوجيا أو نظريَّة.. فلكلِّ إنسانٍ أوتيَ الحَدَّ الأدنى منَ الثقافةِ

تفضيلاتُهُ وتَقييماتُه الشَّخصيَّة في هذه الأطروحَةِ الغامضَة. الأخلاقُ لا تحسُمُ، والضَّميرُ نِسبيٌّ، والمَوروثُ القيَمِيُّ عاجزٌ، والدِّينُ في شَتات.. وإذاً فِكرَةُ الانتِقامِ حَظيَّةٌ هاربةٌ في براري النِّسبيَّةِ والذَاتيَّة. والذي يَظنُّ أنَّ الثّأرَ قيمَةٌ وعُرْفٌ بدائيٌّ من بناتِ الذِّهنيَّةِ القَبَليَّةِ هو مُخطِئ! الثأرُ حاضرٌ في يوميَّاتِنا الآن حضورَ الرُّوحِ في الجسَد. هو سُكَّرُ قهوَتِنا، وزَيتونِ مائدَتِنا، ومازَةُ جَلسَاتِ لذَّتِنا، وربطةُ عنقِ وَجَاهَتِنا، وتَوَابلُ طبَخاتِ أحقادِنا، وإيتيكيت موائدِ جَشَعِنا، ودبلوماسِيُّاتُ ريائيَّاتِنا التي نلوكُها كلَّ يَوم لعنةً مزمنةً لا خلاصَ منها إلاّ بإذنِه تعالى. وهذا الكلامُ رأيٌ هو الآخرُ في المَوضوع. ألا نسمعُ في الرِّياضَة مثلاً "هذه مبارَاةُ ثأر"؟ أو في السِّياسَةِ، وهذا مُخيفٌ ومُعيبٌ في آنٍ معًا، "نحتَفِظُ بحَقِّ الرَدِّ في الوَقتِ الذي نراهُ مناسبًا"؟ وقِسْ على ذلِكَ في الاقتِصادِ والفنِّ والابداع. وللحُبِّ كذلكَ انتِقامَاتُهُ الدَّاميَة المُخيفَة! والمُضحِكُ المُبكي في آنٍ معًا أنَّ حُكمَ الجَريمَةِ الثأريَّةِ أخفُّ من العاديَّة، كأنَّ الثأرَ صنوٌ للدِّفاعِ عنِ النَّفس! وثعبانُ الفِكرةِ الانتِقاميَّةِ مُختبئٌ في جُحورِ صِراعاتِ حياتِنا الذَاتيَّة.. وحيثُ هناكَ صِرَاعٌ يمدُّ الانتقامُ رأسَه باحثًا عن فريستِه. الموظّفون يتصارعون، السِّياسيّون يتصارعون، الإعلاميّون يتصارعون، الفنّانون يتصارعون، العُشَّاق يتصارعون.. وإذًا فالثّأرُ صَنَمٌ عَصريٌّ حَديث، والذي لا يَثأرُ مُبتَدِعٌ مارقٌ جَبان وَضعيف. وقد يُفضِي الصِّراعُ إلى الثأر حينًا، أو يُنجِبُ الثّأرُ صِراعًا أحيانًا.. بل طابورًا منَ الانتِقاماتِ المُتبادَلَة، والصِّراعُ كرَةُ ثَلجٍ بالتَّمام، فيَعلقَ الطَّرَفانِ في دَوَّامَةِ الغريزَةِ الانتِقاميَّة، وجَحيمِ الأفعالِ وردُودِها.. ولا منقِذَ من هذا الجَحيم بغيرِ صَليبِ القرارِ الذَاتيِّ والإرادَة.

وقد يكونُ أشَرُّ ثأرٍ ثأرُ الحُبّ.. وأثأرُ حُبٍّ هو حُبّ المَرْأة!

يثأرُ المَرءُ لعَزيزٍ أو قريبٍ قُتِل. يثأرُ إذا سرقَ عدُوٌّ جَنَى عُمرِهِ. يثأرُ واحِدُهم إذا غُلِبَ في منافسةٍ ما فنيَّةٍ أو رياضيَّةٍ أو إعلاميَّة. ويثأرُ اقتصاديٌّ إذا خسِرَ صَفَقةً جُيِّرَتْ لحِسابِ غريمٍ قديم. وأمَّا الانتِقامُ في الحُبّ فيَصُحُّ فيه كلامُ الرِّوائيّ المِصري أحمَد الفَخراني: "الانتقامُ هو المسَاحَةُ الوَحيدَة التي لا يُمكنُ التَّنبُّؤُ فيها بمَدَى خَيالِ الإنسَان".

*****

روجين آتشي

خرَجَتِ الفتاةُ التُّركيَّةُ الجَميلة من بَيتِ سيِّدِها فارس الرَّاسِي في جونيه، حاملةً في أحشَائِها ثمرَةً أثيمَة.. جَنيناً في شُهُورِهِ الأولى من غيث الرّاسِي ابن فارس، وبعدَ غرامٍ جانحٍ عاصَفٍ مَجنون. رأى فيها والِدا غيث لطخَةً لتاريخِ العائِلَة ومُدَنِّسًا لسُمْعتِها الطيِّبَة. تكلَّمَ فارس معَ روجين بنَبرَةٍ حازمَة، وأعطاها نقودًا منَ العُمْلَةِ اللُّبنانيَّةِ ما يُساوي ٨٠٠ دولارٍ في أيَّامِنا هذه، وقالَ لها:

– إحزِمي أغراضَكِ يا روجين وأخرُجي من هذا البَيتِ بصَمت. لا أريدُ ضَجيجًا ولا "شَوْشَرَة".. واليَومَ قبلَ الغَد.

وأمَّا الفتى الكازانوفا الجَذَّاب غيث، وهو بَطَلُ الفَتحِ العَبَثيِّ هذا، فبَقيَ في نَظَرِ والِدِه فارس قدِّيسًا، ورَجُلاً شُجاعًا قادرًا على رُكوبِ وترويضِ المُستَحيل.

ثمَّ كانَ أن حَزَمَتْ روجين مَتاعَها مُذعنَةً لحَظِّها السيِّئ، وهي العاجزَة لا تملكُ سلاحًا تحاربُ به قدرَها، ونزلَتْ منَ البنايَةِ في اليَومِ التَّالي، حاملةً جَنينَها وحَقيبَتَها، قبلَ بزوغِ الشَّمس كي لا يراها أحَد، ومَشَتْ نحوَ الطَّريقِ العامّ. ولم يَطُلِ انتِظارُها فاستوقفَتْ سيَّارَةَ أجرَةٍ، وقالت لسائِقِها:

– أوصِلني من فضلِك إلى الدَّوْرَة.

وحَمَلَتها السيَّارَةُ إلى الدَّورَة، وألقَتْها في نقطَةٍ ما على رينغِ الدَّائِرَة. نزلَتْ قرْبَ فرنِ المناقيش وتناولَتْ منقوشةً معَ عبوَةِ لبَن، ومن هناكَ استقلَّت سيَّارَةَ أجرَةٍ أخرى إلى ساحَةِ الشُّهَداء، ثمَّ سيّارَةً ثالثةً إلى الشيَّاح في القِسم الغَربيِّ من العاصِمَة.

كانتْ روجين قد أمضَتْ ليلَتَها باكيةً في مُخدَعِها في بيتِ فارس الرّاسي، والمُغامِرُ غيث أقصِيَ هو الآخر عَنْ مَسرَحِ المُغامرَة، ولا تعرفُ أينَ هو لتطلبَ مُساعدَتَه! فقرَّ رأيُها في نِهايةِ المَطاف أن تذهبَ إلى صديقَتَينِ قديمَتَين تكبُرانِها بسَنَوات، فتاتَين فلسطينيَّتَين في بيروت، كانتا وَحيدَتين عازبَتَين أيَّامَ مَصنع الألبسَة. وكانتِ الفلسطينيَّتان أيضًا تعطِفانِ عليها في بدايةِ العاصفَةِ في بيروت، وتهتمَّانِ لأمرِها كثيرًا. المصنعُ أفلسَ وأقفِلَ منذ سنَتَي الحَربِ الأوليَين، وهي لا زالتْ تذكرُ مكانَ إقامتِهما في الشَيَّاح كطَيفِ مَنام، وليسَ أمامَها إلاّ أن ترميَ الحجَرَ في البئر وأنْ تُحاول. أنزلَها السَّائقُ عندَ المنعَطَفِ الكبير بعدَ أن عبرَ بها في مخاضَةِ شارعٍ ضيِّقٍ طَويل، تكادُ الألبسَةُ المَنشورَةُ على الشُّرُفاتِ المُتقابلةِ وشماسي مداخلِ المتاجرِ والدَّكاكينِ أن تلامسَ السَيَّارَةَ ورؤوسَ المارَّة. نقدَتِ الرَّجُلَ مالَه، وراحَتْ تسبُرُ أغوارَ الأزقَّةِ والمُنعَطفات، تسألُ الأولادَ وأصحابَ المتاجر حينًا، وتستَنهضُ ذاكرَتَها القلِقَةَ أحيانًا، إلى أن وصلَتْ إلى البنايةِ المَنشودَة. دَخلَتْ من فَورِها إلى الدُكَّان.. وقالتْ للرَّجُلِ السَّمينِ الجَالس على كرسيٍّ خَشبيٍّ بيُسراه سيكارةٌ يتداعى رمادُ نِصفِها، ويُمناهُ تمَسِّدُ شاربَه المَعقوف:

– صَباح الخير يا مْعلِّم.

– يا صباحَ النّور. أجابَها وناظراهُ مُنجَذبانِ إلى بَطنِها وحَقيبَتِها. المَشهَد لافت! أليسَ لهذه المرأة زَوجٌ وأولاد مَثلاً؟ تأمَّلَ ملامِحَ هذا الوَجْهِ الجَميل وحاولَ أن يتذكَّر. بقيَ صامِتًا، وسألتهُ روجين:

– هلِ الفتاتان ليلى ونُهاد تَسكُنان في هذِه البناية؟

فأجابَها:

– وإلى أينَ ستَذهَبان؟ إنّهما في الطّبقَةِ الثّانيَة.

– شكرًا لكَ يا سيِّدي.

خرَجَتْ من عندِهِ، ومدَّتْ يدَها لتفتَحَ بوَّابَةَ بيتِ الدَّرَج الحَديديَّة.. فوثبَ وراءَها وقالَ لها:

– ليلى ونهاد لن يأتيا قبلَ السَّاعةِ الرَّابعَة بعدَ الظُّهر.. هما في الشُّغل الآن.

فوقفَتْ مكانَها تفكِّرُ في ما عساها أن تفعَلَ في وَقتِ الانتِظار. فقالَ لها الرَّجُل:

– بإمكانِكِ أن تنتظريهُما عندي في الدّاخل أو هنا تحتَ الشَّمسيَّةِ لو أرَدْتِ.. وأحضِرُ لكِ الكرسِيَّ فتَستريْحِي.

فقالت له:

– أنا حقًّا بحاجَةٍ إلى كرسِيّ.. شكرًا لكَ يا سيّدي.. أطالَ اللهُ عمرَك.

وهكذا جلسَت خارجَ الدُكّانةِ على الرَّصيفِ تحتَ الشَّمسيَّة حتى عبرَ نصفُ النَّهار. ثمَّ اقتربَ منها الرَّجُلُ ثانيةً وسألها:

– أنا لم أرَكِ من قبل.. أنتِ قريبَةٌ أم صَديقة لهما؟

– صَديقة قديمَة، أجابَت روجين. وأضافتْ بسؤال:

– أريدُ أن أسألَكَ.. يبدو أنَّ ليلى ونُهاد ما زالتا عازبَتَين؟!

– بلى. أجابَ الرَّجُلُ السَّمين.

وفيما هما يتحادَثان.. توقَّفَتْ سيَّارَة BMW قدّامَ الدُكَّان، ونزلَ شابٌّ في عشرينيَّاتِه جَريءُ النَّظرات، واتَّجَهَ نحوَ البوّابَةِ الحديديَّة، وشالَ بناظرَيهِ إلى اليَمين نحوَ الرَّجُلِ صاحبِ الدُكَّان وروجين، كأنَّهُ تذكَّرَ أمْرًا ما، وقال:

– مرحَبا مْعلِّم خليل.

– أهلاً مروان. أجابَ الرَّجُلُ السَّمين.

– هاتِ رَبطَةَ خُبز من فضلِك.

وتعثَّرَتْ عَيناه بمَشهَدِ روجين جالسةً على الكُرسيِّ وبَطنِها وَحَقيبَتِها.. وجَمالٍ منَ النَّوعِ الذي يختلطُ فيه سَمارُ البشَرَةِ الشَّرقيَّة بعَينَينِ مُلوَّنَتَين أوروبيَّتَين ساحرَتَين. ولكنَّ روجين قرأتْ في نظراتِ هذا الشَابّ مروان ما استَحضرَ من Recycle bin ذاكرَتِها

جرأةَ وعبَثيَّةَ عَينَي غيث الرَّاسي.. ولكن مع فارقٍ كبيرٍ هذه المَرَّة.. نظرات غيث كانتْ تهزُّها وتُطربُها، ونظراتُ مروان هذا جعَلتْها تشعُرُ بالغَثَيان. والتَّجربَةُ العاطفيَّة الأولى الفاشلة، دائمًا أبدًا، تُطلقُ موجَةً نفسيَّةً سلبيَّةً نحوَ الحُبِّ بَعيدَةَ المَدَى.. لا تنتهي إلا بمرور سَنَواتٍ طويلة. وكلَّما كانَ الجُرحُ أعمَقَ كانَ مِقدارُ النَّزيفِ أكبَر.

ودخلَ مَروان وراءَ المُعلِّم خليل ليشتريَ حُزْمَتَي الخُبز. قالَ له المعلّم خليل:

– هذه المَرْأةُ جاءَتْ تسألُ عن ليلى ونُهاد.. وهي تنتظرُهما هنا ريثما تأتيان.

وقالَ مَروان للرَّجُلِ السَّمين:

– كم هيَ فاتنَة!

ثمَّ أخذَ الخُبْزَ وخرَجَ وقالَ لرُوجين:

– أنا أسكنُ في هذِهِ البناية في الطّبقَةِ الثّالثة.. هل بمَقدوري أن أخدُمَكِ بشَيْءٍ سيِّدَتي؟

فأجابَت روجين باقتِضاب، ولم ترفَعْ عَينَيْها إليه:

– لا. شُكرًا لك.

فترَكَها خائبًا وصعدَ إلى شقَّتِهِ في البناية.

ثمَّ عادَ صاحبُ الدُكَّان وسألَها:

– ألسْتِ جائعَةً؟ هل تأكُلينَ شَيئًا؟ فأجابَتْ ثانيةً باقتِضاب:

– لا شكُرًا لكَ يا مُعلِّم خَليل.. أنتَ لطيف.

ثمَّ غابَ لعشر دقائِق في دُكَّانِه.. وخرَجَ ثانيةً وفي يدِهِ عَبْوَةٌ من المَشروب الغازيّ، وقالَ لها:

– إشرَبي هذه.. واسنِدِي روحَكِ.

فأخذَتْها منه شاكرةً. ولم تَمضِ ربع ساعَة حتى توقَّفَتْ سيَّارَةُ أجرَةٍ أمامَ البَّوابَةِ الحَديديَّة، ونزلَتْ منها امرأةٌ ثلاثِينيَّةٌ واتَّجَهَتْ نَحوَ البَوَّابة. عرفَتْ روجين المَرأةَ بسُهُولة:

– مرحبا ليلى!

وأدارَتْ ليلى رأسَها نَحوَ الصَّوتِ الذي سمِعَتْهُ.. واقتربَتْ من روجين تُنعِمُ نظرَها في هذا الوَجهِ المَليح، ومَشهَدُ البَطنِ المُنتفِخِ والحَقيبَةِ بجَانبِها جذَبَ انتِباهَها هي الأخرى. وقفَتْ روجين وقالت:

– ليلى أنا روجين آتشي.. هل تذكرينَني؟!

– روجين!! صرخَتْ ليلى والدَّهشةُ تشُدُّ حَوَافَّ وَجهِها. وسألتْ:

– روجين الفتاة التُّركيَّة أيَّامَ المَصنَع؟!

– هيَ بذاتِها يا ليلى.

وتعانَقتِ الفتاتان بحَرَارَة. قالتْ ليلى:

– أنتِ حامِل يا روجين؟ ما شاءَ الله.. تزَوَّجتِ إذًا؟! قالت في شبهِ سؤال.

– لا يا ليلى لم أتَزوَّج.. هذه حِكاية طويلة.. وسأرويها لكِ.

وشرَقَتْ روجين بدموعِها، والمعلِّم خليل واقِفٌ في بابِ دُكَّانِهِ يسمَعُ كلامَهُما.

– وهَل أنا منَ النَّوْع الذي ينتظِرُ.. تعالي تعالي. قالت ليلى وقد قرَأتْ فصولَ المُصيبَةِ بسُهولة.. دموعٌ وحَقيبَةٌ وحالةُ حَبَلٍ وعُزوبيَّة في آنٍ معًا!

شَدَّتْ ليلى روجين بيَدِها وحاولَتْ أن تحمِلَ حقيبَتَها وَصَدَّتها روجين:

– لا لن أدَعَكِ تحمِلينَ الحَقيبَة. أذكرُكِ مندفِعَةً وصاحبَةَ نخوَة.

وَصعدَتِ الفتاتان إلى الشُقَّةِ الصَّغيرَة البسيطَة، وجَلسَتا لدَقائِقَ في البَهو، وقدَّمَتْ ليلى لروجين كوبًا من عصير الجَزَر ثمَّ قالتْ لها:

– ستأتي نُهاد عمَّا قريب، وأنتِ وأنا نحَضِّرُ لُقمَةً لنا جَميعًا. فشَمِّري عن ساعدَيكِ وتعالي خبِّريني خَبريَّتَكِ معي في المَطبَخ.

وراحَتْ ليلى وروجين تُحَضِّران التَبُّولةَ والبطاطا وعَددًا من أقراص الكبَّةِ المَقليَّة وصَحنًا من الحمّص بطحينة وقليلاً منَ المَكابيس.. وتتحادثان. واستطاعَتْ روجين أن توصلَ فِكرَتَها ومأسَأتَها المُرَّة لليلى بإيجازٍ بليغ. وأدركَتِ الأخيرَةُ عُمْقَ مُصيبَةِ الحَسناءِ التُّركيَّة. وما إن وَضَعتا الطَّعامَ وجَلسَتا إلى المائِدَة وهَمَّتا بالأكل وصلَتْ نُهاد. سمِعَتا صوتَ إغلاقِ البابِ ونُهاد تنادي:

– أنا هنا يا ليلى. أوه! رائِحَة الكبَّة المَقليَّة شَهيَّةٌ طيِّبَة.

– تعالي يا نُهاد نحنُ هنا.. واحذَري مَن هو ضَيفُنا على الطَّعام.

ودخلَتْ نُهاد إلى غرفةِ الطّعام ورأتْ روجين.. وبدا أنَّها لم تَعرفْها في النَّظرَةِ الأولى.

– هل عَرَفْتِها؟ سألتْ ليلى.

وتأمَّلَتْ نُهاد مليًّا في العَينَينِ السَّاحِرَتَين الذَّابلتَين، وأجابَتْ:

– لا! للأسَف.. أعذريني.

– تذكَّري يا نُهاد.. تذكَّري أيّامَ مصنَع الألبسَة. فهَتَفَتْ نُهاد عندئذٍ:

– روجين آتشي.. الفتاة الجميلة!!

وأرادَتْ روجين أن تقِفَ لتُصافحَها وتُعانقَها.. فقالت نُهاد:

– لا تقومي عن الطَّعام يا روجين.

ولكنَّها قامَتْ وتَعانقَتا. وجلسَ النِّسوَةُ الثَّلاث إلى المائِدَة يتَحدَّثنَ لساعاتٍ كأنَّهُن يُخبرْنَ كلٌّ واحِدَةٍ قصَّتَها في السَّنوَاتِ الأخيرَةِ من عمرِهِنّ.. وخصوصًا في ويلاتِ ووَهلاتِ الحَرب. أمّا قصَّةُ روجين فقد لمَسَتْ مشاعرَهما، وحرَّكَتْ عقلَهما، وحَفَّزَتِ استِنكارَهما

وغضَبَهما على بَيتِ الرَّاسي وابنِهما المُدلَّل الماجِن غَيث. قالت روجين في نهايةِ المَطاف:

– تعرفانِ أنّي وَحيدةٌ في هذه الدُّنيا.. أنا بحاجَة إليكما فلا تتَخلَّيا عنّي. لا أدري ماذا أفعَل وكيفَ أتصرَّف.

– لن نتخلَّى عنكِ يا روجين.. نحن معَكِ قولاً وفِعلاً.. وستتخطَّينَ مِحنتَكِ هذه إن شاءَ الله. قالت نُهاد وهي تمسَحُ دَمْعَتَها هيَ الأخرى. ثمَّ سَألتْ:

– ألا يُساعدُكِ غَيث لو اتَّصلتِ به.. مَن يدري؟!

– لا أظنُّ ذلك ولا أعرفُ أينَ هو حتى.. لقد انشَقَّتِ الأرضُ وابتَلَعَتْه. لقد خدَمتُهُم بأمانةٍ لسنواتٍ طويلةٍ.. وتخلّوا عنّي في مُصيبَتي مَطرودةً ذليلة! أقسِمُ لن تَمُرَّ فَعلتُهُم بي هكذا.. والأيَّامُ بَينَنا. قالت روجين بصَوتٍ خافتٍ واثق، وفي عَينَيْها بريقٌ شاحب.

ثمَّ انتَهى الثلاث من تناولِ الطَّعَام والتَّحليَة، وشَربنَ القهوَةَ، ولم يَستطِعْنَ القيامَ عن الطّاولة. فالأحاديثُ قِطارٌ سَريعٌ يَجُرُّ فيه الحَديثُ رَفيقَهُ بسَلاسَة.. وخُصوصًا جوانبُ واحتِمالاتُ القضيَّةِ المَطروحَة قيدَ البَحث. قالت ليلى:

– إسقاطُ الجَنين.. أو إيداع الطِّفل بعدَ الولادَة في جَمعيَّةٍ أو مَيْتَم.. أو تربيتُهُ بلا أبٍ وَزَواج، فاحتمالُ زواجِكِ يا روجين في هذه الظُّرُوفِ احتمالٌ ضَعيف جدًّا.

– لن أسقِطَ طِفلي ولن أتخلَّى عنه. قالت روجين بحَزم.

– وإذًا فالرِّحلةُ أمامَكِ طويلةٌ وشاقَّة يا حَبيبَة قلبي يا روجين. قالت نُهاد واقترَبَتْ من روجين وضمَّتْها إلى صَدرِها.. فشَرقَتْ روجين بدُموعِها.

وفي نهايةِ المَطاف قالت روجين:

– دَعوني أبقَ هنا فأخدُمَكما بلا مُقابل حتى أضَعُ مولودي، وأكونُ لذاكَ الوَقت قد وجَدتُ عَمَلاً ومَبيْتًا لي في مكانٍ ما في بيروت.

وهكذا دامَ التَّباحُثُ في المأساةِ حتى حَلَّ الظّلام. وأخيرًا أذعنَتِ الفتاتان العازبتان المُزمنتان لمَشروعِ الحَسناءِ البائسَة. فبقيَتْ روجين عندَهما خادمةً لهما.. ومَدَّاها بالمال لزيارَةِ الطَّبيبَةِ المُشرفة على تطوُّر مراحِلِ حَبَلِها.. حتى مَرَّتِ الشُّهورُ بسُرعةٍ وجاءَت ساعَةُ الوَضع. ولَّدَتْ روجين في المستشفى الحُكوميّ في العاصمَة على حِسابِ الوزارَة، وأنجَبَتْ صَبيًّا ذَكرًا ذا عَيْنَينِ حُلوتَين كعَيْنَيها، وأسمَتْهُ مُصطفى، وكانَ نورَ بَهجَةٍ وسطَ ظلمَةِ كآبَتِها الدّامسَة. واستراحَت لثلاثَةِ أسابيع رَيثما استَعَادَتْ نشَاطَها. ثمَّ عادَتْ إلى حَرَكَتِها وخِدمَةِ الفتاتَين في بَيتِهما. وذاتَ مَسَاءٍ قالت روجين لليلى وهما يحسوانِ القَهوَةَ على الشُّرفةِ الضيِّقَةِ فوقَ الشّارعِ المُكتَظِّ الطَّويل:

– ليلى.. يَجبُ أن أجِدَ عَمَلاً في أقرَبِ وَقتٍ وأرحل. كنتما سَنَدًا لي بل أنتُما كأختَيَّ الكبيرَتَين. ولن أستطيعَ أن أرُدَّ لكما هذا الجَميلَ ما حَييْت. ولهذا لا أريدُ أن أجلُبَ لكما المَزيدَ منَ متاعب.

وعندَما استنكرَتْ ليلى كلامَ روجين، واستَوضَحَتاها عن نوعِ المتاعبِ التي تتحدَّثُ عنها الآن.. أجابَتْ روجين:

– الشَابّ مَروان جارُكما فوق...

وَصَمَتَتْ صَمتًا لا يَحملُ تأويلاً أو تفسيرًا.

– مروان جارنا!! ما بهِ.. هل قالَ لكِ شيئًا؟!

– لستُ أدري يا ليلى.. هل خَلَقَ جُرْحُ غَيث في داخِلِي عَقدَةً نَحوَ الرِّجال؟!

وأجابَتْ ليلى:

– لا نعرفُ مروان جيِّدًا، هو جارُنا قبلَ مَجيئِكِ بشَهرٍ فقط. وإذا أزعَجَكِ في شيء سأوقِفُه عندَ حَدِّه.. بل نستطيعُ أن نطرُدَه منَ البناية.

فقالت روجين:

– قرَأتُ في عَينَيهِ أشياءَ كثيرَةً غريبَةً وجريئة.. وهي لَجوجَةٌ ومنذ وصولي! ينتابُني خوفٌ غامض كلَّما نزلتُ وصَعدتُ الدَّرَج.

ولكنَّ روجين أدرَكَتْ بحَدْسِ الأنثى الفاتِنَة والضَّعيفَةِ في آنٍ، والتي تشعرُ أنَّ أنوثَتَها طاقةٌ خارجَة عن السَّيطرَة، وسيفٌ ماردٌ نافذٌ إلى قلبِ غريزَةِ الرَّجُل، أنَّ مروان الجَّارَ الشَابّ في الطّبقَةِ الثالثة نُسخَةٌ سالبةٌ عن غَيث. وعرَفَتْ أنَّ غُيُوثًا ومَرَاوينَ كثيرةً سيكمنونَ لها عندَ مُنعطفاتِ الحَيَاة وفي ظلمَةِ أزقَّتِها. وستَكونُ عاجلاً أم آجلاً فريسَةً سَهلةَ المَنال.. ما لم تتَسلَّحْ بما يُخيفُ تَذاؤُباتِ الشَّهَواتِ الرُّجوليَّةِ النَّهِمَة. صفعَةُ غَيث كانتْ مؤلمةً جدًّا.. بل هي مِديَةٌ شوَّهَتِ البُنيَةَ الأنثويَّةَ الزَّاغبَة في وجدانِها. وشرَعَتْ روجين تفتِّشُ عن عملٍ.. وحتمًا ليسَ خادمةً في البُيوت هذه المَرَّة. إلى أن جاءَتْ تلكَ السَّاعةُ المَشؤُومَة التي كانَ "سِنْسِر" الخَوفِ فيها يستَشعرُها قريبَةً.. وَعَقلُها يَتوَقَّعُها.. وَعَيناها تُرَاقبانِها وافِدةً من بَعيدٍ على دُرُوبِ الحذَرِ والوَحشَةِ والقلَق.

*****

الورقة الثّـامنـة

أحبَبْتُـكِ مُرْغمًا،
ليسَ لأنَّكِ الأجمَلُ بل لأنَّكِ الأعـمَـقْ..
فعَـاشِقُ الجَـمَـال
في العادَةِ أحـمَـقْ.

مَحمود درويش

يَصعبُ على الإنسان أن يَكبَحَ جمَاحَ شَهَواتِه..
ويَستحيلُ عليهِ أيضًا أن يُشبعَها.

مدام دي لا سبليار

"لستُ مُقتَنِعًا بعد بهذِه اللُّعبَةِ يا صَديقي"

كانتْ هذه كلمات موسى صَديق مَروان لهذا الأخير في شقَّتِهِ، فوقَ شقَّةِ ليلى ونُهاد، ذاتَ ليلةٍ قلِقَةٍ كانتِ الأرواحُ المارِدَةُ فيها تَطوفُ حولَ هَيكَلِ العَمارَةِ الفقيرَةِ المؤلّفة من

ثلاث طبقات: ففي الأولى بيتُ أمِّ حَسَن وَزَوجِها والثانية شقَّةُ ليلى ونُهاد والثالثة بيتُ مَروان. إنَّها الشَّيَاطين التي أرْخَتْ من يَدِها غيث الرَّاسي إلى حين.. وطارَدَتِ الفاتنَةَ التُّركيَّة روجين آتشي إلى هذا المكانِ المُكتَظِّ في قلبِ المَدينَة.. لكي تُجهزَ على ما تبَقَّى من حَياةٍ مُتَداعيةٍ تائهَة، والمثلُ يقول "حيثُ تجتَمعُ الشَّياطينُ فهناكَ السِّحرُ والجَمَال!" (بتصرّف). هي المَرَّةُ الأولى التي يأتي فيها موسى إلى بيتِ مَروان فوقَ دُكَّانةِ المعلِّم خليل.. وقد تعمَّدَ المَجيءَ في منتصَفِ اللّيل فلا تُصيبُهُ نُشَّاباتُ العُيونِ النَّهِمَة حولَ العَمارَة. منذ مجيئِهِ حتى لقائهِ بروجين عندَ البَوَّابةِ الحَديديَّة، وسُمعةُ مَروان في الحَيِّ نظيفَة! شابٌّ عازبٌ وحيد لا زُوَّارَ ولا أقرباء، والمُعاملةُ لطيفة معَ الجَميع. ومنذ حُضورِ روجين الغامض في الحَيِّ.. بدأتِ الأفكارُ والنَّوَايا تتَحرَّشُ بها، إلى أن حَبلَتِ النَّوايا بالأفعال وشرَعَت في تنفيذِها. ولكنَّ أحَدًا لا يعرفُ ماذا يَختَبئ وَرَاءَ الجُدران! وجدرانُ شُقَّةِ مَروان لديها الكثير من الأسرار لتُبقيَهُ بَعيدًا عن العُيونِ والألسُن.. إن هي إلاَّ وَكرٌ صَغيرٌ لكاسِرٍ صَغيرٍ زَغِبٍ، بل هي جُحْرُ لذَّةٍ أثيمَةٍ مَريضَة. لم يَرَ أحَدٌ امرأةً تأتي لعندِ مَروان ولا رَجُلاً، لأنَّ عَقاقيرَ النَّشْوَةِ تلكَ التي كانت تتَسلَّلُ في جُيوبٍ وقنَوَاتٍ مَسْحورةٍ بَعيدًا عن مَجَاهرِ الفُضوليَّة، في حَيٍّ مُكتظٍّ يَزحَمُ فيه البناءُ كتِفَ رفيقِهِ في طابورٍ طويل.. كأنَّها مُقدِّمَةُ مُظاهرَةٍ مُتشَابكةِ الأيدي والأكتاف. النّاسُ هنا يُفتِّشونَ بالسِّراجِ والفتيلةِ عن جَديداتِ أسرارِ اللّيالي، وأنباءِ الأيّام عندَ بزوغِ شَمسِ الصّبَاح. فهناكَ سِفرُ أخبارٍ دسمٍ لهذا الحَيِّ الكبير! وروجين آتشي ستكونُ الخبَريَّةَ الطازجة وتسليَةَ الألسُنِ الضَّجِرَة، وستُصبحُ حتمًا بطلةَ فَصلٍ طريفٍ مِن فُصُولِ هذا السِّفر.

– أنتَ فقط ستكونُ الكَمينَ يا موسى. قالَ مَروان لموسى.

– بل أنا شريكٌ لكَ في التَّخطيط ونِصفِ التَّنفيذ.. إذا حدَثَ، لا سمَحَ الله، ما لا تُحمَدُ عُقباه. أجابَ موسى.

– سأترُكُ هذا المَكان يا موسى.. لن أبقى بعدُ أكثرَ من هذا.

– إلى أين؟

– إلى الشَّرقيَّة.. الدّكوانة[1]. عيونُ رجال التَحرِّي تُلاحقُني، يجب أن أختفي. ولكن بعدَ أن أخزِّنَ طاقةً ونشوةً من حُسْنِ روجين. وَحيدَة غيرُ متزوِّجَة وقد وَضَعَت مولودًا منذ شهرين، ولا رُكنَ لها تستنِدُ إليه وَسِحرٌ لا مَثِيلَ له. إنَّها طبْخَة جاهزة بكامِلِ توابلِها.. بل هي وَليمَةٌ يا صَديقي.. وفرصَة نادرَة!!

كانَ مَروان يتكلَّم وخبثُ الشَّهوَةِ يومضُ في عَينَيه، وإلحاحُ الغريزَةِ طيرُ يَقفزُ فوقَ غصونِ كلماتِهِ المُتَقطِّعَة مُعلنًا عن تصميمٍ لا تراجُعَ عنه البتَّة. واقتنَعَ موسى في النِّهاية بمشروع مَروان. تَصيُّدُ لذَّةٍ عابرَةٍ لن يَكونَ أصعبَ من بَيعِ وتَنَشِّي المَمنوعاتِ التي يَتَعاطانِها معًا. قالَ موسى:

– أقسمُ بأنَّكَ شيطانٌ في جسَدِ آدميٍّ!

– في الأسبوعِ القادم سأحزمُ أمري وأنقُلُ أغراضي وَمَتاعي إلى الدّكوانة. وقبل الرَّحيل مباشَرَةً سنقومُ في تنفيذِ عَمليَّةِ سَطوٍ جِنسيٍّ طريفة في الشقَّة تحتَنا.

وهكذا مَرَّتِ الأيّام.. وكانَ مَروان في أثنائِها ينقلُ متاعَه وعَفشَه البَسيط بالتَّقسيط إلى وَكرِهِ الجَديد والمؤقَّت في الدّكوانة. وهو ستوديو من غرفتَين صَغيرتين في المستودَع السُّفليّ من بنايةٍ تجاريَّة. ثمَّ أزَفَ موعِدُ الوَليمَةِ الشَهيَّة. وجاءَ موسى لعند مَروان في منتصفِ اللّيل أيضًا، وهذه المرَّة الثانية و"الأخيرَة" عندَ التَّنفيذ، مُتَخفِّيًا بعباءَةِ الظُّلمَة. وتباحَثا في شَكلِ العَمليَّةِ وتَداعِياتِها.. وبَقِيا ساهِرَين طويلاً يحسوانِ القهوَةَ ويُشعِلان اللَّفائِف. قالَ موسى لمَروان:

– سيكتشفون أمرَكَ يا مَروان.. وستُضيفُ إلى لائِحَتِكَ نوعًا آخرَ من المآثر إلى جانبِ الإتجار والتَّعاطي.

– الفاتنة التُركيَّة روجين طيَّرَتْ عقلي يا موسى.. لن أدَعْها تمرُّ أمامي كالغَزَالةِ التائِهَة أمامَ صَيَّادٍ غَبيٍّ جَبان. منذ رأيتُها للمَرَّةِ الأولى وأنا أتحيَّن الفرصَة.. وآنَ أوانُها.

– لماذا لا تُحاولُ أن تتزَوَّجَها مثلاً؟! سألَ موسى.

[1] حيٌ في القسم الشّرقيّ من العاصمَة بيروت.

– عنَّتِ الفِكرَةُ لي صَدِّقني.. ولكنَّ الجَميلةَ صَدَّتني بشراسةٍ غيرَ مَرَّة. لقد أذلَّتني في نِصفِ الشَّارع بصَوتٍ عالٍ. إنَّها ترتجفُ مذعورةً عندَما تراني! أعتقدُ أنَّها لم تخرُجْ بعدُ من مُشكلتِها مع ذلكَ الشَابّ غيث..

– من غيث؟ سألَ موسى.

– طوالَ هذه الشُّهور وأنا أتحَرَّى عنها عندَ المُعلِّم خليل، وأتَسَقَّطُ بعضَ الأخبار من الشَّائعاتِ المَنثورة في الحَيّ.

– وخلاصة هذه الشّائِعات؟

– كانت روجين على علاقةٍ بشَابٍّ اسمُه غيث، خَدَعَها وغرَّرَ بها، ثمَّ طرَدوها من بَيتِهم حيث كانت خادمةً عندَهم. وأنتَ الآن ستكونُ رَسولاً من الحَبيب غَيث إليها.

– ماذا؟؟!! سألَ موسى مذعورًا.

– ما بك؟ أنتَ بارع في التَّمثيل يا صَديقي. وسأكتبُ أنا رسالةً تُعطيها إيَّاها، وتنقلُ إليها سلاماتِ غَيث الطيِّبَة ورَغبتَه في إصلاح ذات البَين. وتأخذُها بالكلام وتُغافلُها.. ثمَّ تَضعُ الحَبَّةَ السِّحريَّةَ في فُنجانِها.. وتبقى تُحادثها ريثما "تَستَوي".. ثمَّ نسْحَبُها إلى فوق.

– وإذا جاءَ أحَدٌ فجأةً؟

– الفتاتان ليلى ونُهاد في عَملِهما.. وروجين في النَّهَار وَحدَها تهتَمُّ بطفلِها وأشغالِ البَيت. إنَّها خادمَة في البَيت عندَ الفَتاتَين! والمَوضوع كلُّه ساعة زَمان.

وهكذا راحَ مَروان يشرحُ لموسى تفاصيل الخُطَّة، وأذعنَ موسى، معَ كونِ الاغتصاب العمليَّةَ الأولى للشَابَّين النَّزقَين المُنحَرفَين. المَهمَّةُ سهلَة جدًّا بالمُقارنة معَ عمليَّاتِ المُخدِّرات المُغامرَة والمُضنِيَة.. والتي تهدِّدُ الحَياةَ في بعض عثراتِها.

– تنتهي العَمليَّةُ من هنا.. ونَطيرُ من هنا إلى غَير رجعَة. أنتَ غريبٌ لم يَرَكَ أحدٌ في الحَيّ. حتى لو تذكَّرَتْ روجين ملامحَك فاسمُكَ مَجهول. والشُّكوكُ حتمًا ستلاحقُني نتيجَةَ التَّخمينات واختفائِي المتزامِن والسَّريع.

– واحتمالات الفشَل يا مَروان؟

– شبه مَعدومَة..

– وإذا حدثَتْ مفاجآتٌ في غيرِ الحسبان؟ سألَ موسى أيضًا.

– أنا موجود.. ونتعاون معًا على مواجهَةِ المأزق المُحتَمَل.

– هذه عَمليَّة مُختلفَة نوعيًّا عن سابقاتِها. إنَّها خطوَة أولى والخطوَةُ الأولى مُرتبكَة دائِمًا.

تسامَرا حتّى السّاعةِ الثالثة بعدَ منتصفِ اللّيل. وقال مروان لموسى:

– نَمْ ساعة زَمان.. ثمَّ اصحُ وارْحَلْ قبلَ أن تنقَشِعَ الظُّلمَة.

فنامَ موسى قليلاً.. ونصفُ نومَتِهِ تفكيرٌ في مساعَدَةِ صديقه الذي يَدينُ له بالكثير.. بل بحيَاتِهِ! فقد أنقذَهُ مَروان مَرَّتَين من كمينٍ للشُّرطة، وفي الثّانيَة كانَ يَنزفُ دماءً من طَلَقٍ ناريٍّ أصابَه.

*****

كانَ الطَّقسُ غائِمًا في ذلِكَ الصَّباحِ الشَّاحب، حيث أمْطرَتِ السَّمَاءُ مِدرارًا منذ بعد منتصفِ اللّيل.. وراحَتِ مزاريبُ السُّطوحِ تعزفُ لحنًا كئيبًا وتسكبُ موسيقاها على جُدرانِ الشّارعِ الطّويل الصَّفراء. كانَ يومًا من أيَّام أواخر الرَّبيع السَخيَّة. وكانت روجين آتشي لوحدِها في البَيت بعدَ ذهابِ ليلى ونُهاد إلى عَمَلِهما، وشرَعَتْ طورًا تهتمُّ بوَليدِها مُصطفى وتُلاعبُهُ وتارةً تُنجزُ أعمالَ الخدمَةِ في البَيت. ثمَّ سمِعَتْ فجأةً رَنينَ جرَسِ الباب، ساءَلَتْ نفسَها في من عَسَاهُ الوافدُ غير المتوقَّع؟! لا يزورُها أحَدٌ في غياب ليلى ونهاد، وأمّ حسَن الجارةُ تَحتَها تأتي مرَّةً في الشَّهر. تسارعَتْ دقّات قلبِها.. ونادَتْ بحَذَر وهيَ واقفة على بُعدِ خطواتٍ من الباب:

– منِ الطّارق؟ أمّ حَسَن؟!

– لا ليسَت أمَّ حسَن يا روجين! أجابَ موسى الواقف خارجًا، وقد باشرَ في تنفيذِ المَهَمَّة بحسَب تعليماتِ مَروان، وبيدِهِ الرِّسالة المَزعومَة من غَيث.

– من إذًا؟! سألَتْ روجين وقد اقتربَت من ثقب عَينِ الباب لترى ملامحَ الصَّوتِ الرُّجوليِّ الغريب الذي ليسَ هو لأبي حسَن زوج أمّ حسَن ولا المُعلّم خليل ولا لصاحبِ الملامح المُخيفَة مَروان. رأت عَينَين رَماديَّتَين وجَفنَين سُفليَّين مُرتَخيَين كجَفنَي المُمثِّل الأميركيّ سلفستر ستالون:

– مَن أنتَ يا هذا؟ وماذا تُريد؟ سألت روجين بنَبرَةٍ حازمَة.

– أنا فوزي صديقُ غَيث الرَّاسِي. أجابَ موسى. واسمُ فوزي جزء من السِّيناريو.

وسكتَ ليَرَى تداعياتِ اسمِ غَيث في كلماتِها وَرَدَّةِ فعلِها. واستيقظَ الألمُ الدَّفينُ في ذاتِها.. الألمُ المُخَدَّرُ تَخديرًا موضِعيًّا وَقتيًّا.. وهلِ النِّسيانُ غيرُ حالةٍ تَخديريَّةٍ لجُروحِ العاطِفة؟ وإذا كانَ الجُرحُ الخارجيُّ يبقى ظاهرًا في الجسَد كلَّ العُمر، فكم بالحَري جُرُوح النَّفس؟! والجُرحُ الذي ألهَبَهُ الحِقدُ المُرُّ جُرثومَةٌ لا عِلاجَ لها بسِوى الانتِقام. وبعدَ هذِه الحادثَةِ الدَّاميَةِ الوَشيكَةِ أن تحدُثَ سَيَتَحوَّلُ اسمُ غَيث الرَّاسي في ذاتِ روجين إلى كابوسٍ مُزمنٍ.. ومَجمَرَةٍ لاهبَةٍ في صدرِها.. حارقةٍ لأحلامِ شَبَابِها العِذاب.

– غَيث الرّاسِي!! قالت بصَوتٍ مُرتعِشٍ خافتٍ ذاهِل.

– بلى يا روجين وقد حَمَّلَني إليكِ رسالة.. وهذه هي الرِّسالة بيَدي إذا كُنتِ ترَينَنِي من ثقبِ الباب.

وشالَ بالرِّسالةِ قربَ رأسِه، ورأت روجين الرِّسالة. وراحَتِ الاستفهاماتُ تَتطَحُ رأسَها: أحقًّا غَيث يسعى ورائي؟ ماذا يُريد؟ كيفَ عرفَ مكاني؟ الكارثَة وقعَت؟ أتُراهُ يتزَوَّجُني؟ لا لا.. أيَمُدُّ لي يدَ المُساعدَة.. ماديَّة؟ لا. ماذا وراءَه إذًا؟!

– ولكن.. لماذا لم يأتِ هو بنفسِه؟ سألت روجين ثانيةً الوافِدَ الغريب.

– ربَّما في رسالتِهِ يشرَحُ الأسباب.

وفتَحَت روجين الباب، وقاسَت قامةَ موسى من أمِّ الرَّأس حتى الأخمصَين، ودَعَتْهُ إلى الدَّاخِل.. وهكذا أصبحَ الثَّعلبُ في خُمِّ الدَّجاج. جلسَ موسى في البَهو.. وأخذَتْ هي الرِّسَالةَ من يَدِه قبلَ أن يُعطيَها إيّاها، فَضتَّها وتاهَت عَيناها بينَ السُّطور. فيما رَاحَ هو يَعَبِّئُ رأسَها بكلامِ المُتَيَّمِ المُلتاع غَيث من فرقَةِ حَبيبتِه، وأشواقِهِ الحارَّة للتَّوبةِ وإصلاح ما فسد. كانتِ الرِّسالةُ موجزَة.. وفي السَّطر الأخير تلميحٌ خبيثٌ وتصريحٌ مُناور بفكرَةِ الزَّوَاج، والعَيشِ في حَيَاةٍ جدَيدَةٍ بَعيدًا عن الأهل والأقارب. ورأى موسى أساريرَ وجهِها الجَذَّابِ والكئيب تنفرجُ وتبتَهج.. أغمَضَتْ عَينَيها قليلاً.. ثمَّ عادَتْ وتَركَتهُما تَنزلقانِ بحُبور فوقَ الورَقة. وهكذا وَقعَتِ المِسكينة في الفَخّ! راحَ موسى يَنتظرُ فنجانَ القَهوَة بفارغ الصَّبر.. وهو يرتجلُ أخبارًا وحِكاياتٍ عن غيث.. وهي تستغربُ بعضَها وتُثني على البَعض الآخر، ولم يُبصِرْ بَعدُ حَدسُها الأنوثِيُّ طلائِعَ المَكيدَة. عادَتْ وسَألت:

– ولكن.. لماذا لم يأتِ هو بنفسِهِ!!

فارتَجلَ بعدَ صَمْت:

– ربَّما ظنَّ أنّكِ غاضبَة منه.. فقالَ أجُسّ النَّبض أوّلاً من خلال رسالة. وأنا أراكِ مستعدَّة لتلقُّفِ مبادَرَتِه، أليسَ كذلك؟

صارَ يأخذُها من حديثٍ ويُدخِلُها في آخر.. حتى قامت وعَمِلت فنجانَ القهوَة الذي انتظرَه وقد نَفَدَ صبرُه. عادَتْ وَصَبَّتْ فنجانَين وتابعا الكلام وهما يرتشفانِ القهوَة. ولكن.. متى يُسقِطُ لها حَبَّةَ الرُّوفينول في قهوَتِها؟! قالَ لها:

– من فضلِكِ أحتاجُ لكوبِ ماء.

فقامَتْ إلى المَطبَخ لتجلُبَ له الماء.. وهو من فورِه وضَعَ الحَبَّة في فنجَانِها وذَوَّبها بالمِلعقةِ الصَّغيرَة في الرَّكوَة. عادَتْ وَأعطَتْهُ المَاءَ وشربَ.. وعادا إلى الكلام ثانية.. ومرَّت الدَّقائِق.. والحَديثُ يَجُرُّ الحَديث من إبداعاتِ موسى الخَلاَّقة. وتأثيرُ الحبَّةِ في العادَةِ يتراوَحُ بينَ عَشر دقائق ورُبع ساعة، ثمَّ تَحدُثُ الغيبوبَةُ نصفُ الواعيَة أو نصفُ التَّخدير.. العينُ ترَى الأشكالَ تتَحرَّكُ، والذِّهنُ في الحُلُم، والجَسَدُ واهٍ والصَّوتُ عاجز.

مرَّتِ الدَّقائقُ الأولى.. وبدأت تشْعُرُ بالتَغيُّراتِ الدّراماتيكيَّة في جسَدِها والتَّنميلات الزّاحفَة إلى أطرافِها. أدرَكَتْ روجين بذكائِها الفِطريِّ وتجربَتِها القاسيَة أنَّها الآن أصبَحَت فريسَة، ولقمَةً سائغَة لذئبٍ جائِع، وأنَّ حِكايةَ رسالةِ غيث خِدعَة. الغريق يتمسَّكُ بحبالِ الهَوَاء! ظنَّت في الرِّسالةِ مَرساةَ نَجاةٍ فإذا بها حَبل مشنقَة. لقد قرَأتْ جيِّدًا الوَمضَةَ الماكِرَة في عَينَي الصَّديق المَزعوم فوزي. ولكنَّ التَّخديرَ لم يصلْ بعدُ إلى ذروتِهِ.. فقامَت على مَهلِها إلى المَطبَخ.. وشَعرَتْ بشبَح موسى يُلاحقُها أيضًا على مَهل. نظرَتْ إلى ورائِها ورَأته واقِفًا كالمومياء يذوبُ وسطَ ضبابَةٍ وَهميَّةٍ رسمَها التَّخديرُ الغائِص في خلايا رأسِها. فاستجمَعَتْ كلَّ قواها، ودَخلتِ المطبَخ.. وقفَتْ وراءَ الباب مُتظاهِرَةً كأنَّها تبحَثُ عمّا تقدِّمُه أيضًا كضيافة.. رُكبتاها تكادانِ تنهاران.. أمسكَتْ بالسِكِّين.. وما إن خطا موسى وراءَها خطوةً واحدةَ داخلَ المطبخ.. فبادَرَته بطَعنَةٍ في أسفلِ عنقِهِ الأيسَر، وضَعَتْ فيها ما تبَقَّى في جسَدِها الواهي من قوَّةٍ وعَزيمَة. فطَرْطشَتِ الطَّعنةُ البِكرُ الدِّمَاءَ عليها وعلى بابِ وجِدارِ المَطبَخ. وزَعقَ موسى زَعقةً مُرعبةً سَمِعَها مَروان الذي كانَ ينتظرُ التَطوُّرات خارجَ البابِ قلِقًا حَذِرًا. فاقترَبَ من الباب ونادى:

– موسى.. موسى افتَح لي.. موسى ماذا جَرَى؟!

واتَّجَهَ موسى متأوِّهًا نحو الباب يُريدُ أن يَفتَحَه، ويدُه على السِكِّينِ المَغروزِ في عُنقِه، فشدَّتْهُ روجين من سُترَتِهِ ودَفعَتْهُ إلى الأرض. وألقَتْ ظَهرَها على الباب وراحَتْ تنهارُ وتنزلقُ حتى تقَوقعَتْ وَجلَستْ على قفاها عندَ أسفلِ الباب، وقد أصبَحَتْ بالكامل تحتَ تأثير حبَّةِ الرُّوفينول، بَينَ وَعيٍ ولاوَعي عاجزةً عن الحركَةِ والصُّرَاخ.. وهي تسمَعُ صَوْتَين مُتناقِضَين يمزِّقانِ وجدانَها المُرهَق: صوتَ وليدِها مُصطفى في الغرفَةِ يصرُخ، وصَوْتَ مَروان كفَحِيحِ الأفعى خارجَ الباب يَهمُسُ ويَنادي:

– موسى ماذا جَرَى؟ إفتَحْ لي.

وفي نهايةِ المَطاف يئِسَ مَروان من نجاحِ شريكِه موسى في المَهَمَّة.. وأدرَكَ أنَّ الكارثة وَقعَتْ. وثبَ إلى شقَّتِه وجمعَ متاعَهُ في حقيبةٍ رياضيَّة صَغيرَة.. وأسرَعَ نحوَ

الدَّرَج. رَأى المُعلِّم خليل يَصعدُ الدَّرَج على مَهل! فتوارى وترَيَّث. قرَعَ المُعلِّم خليل البابَ عندَ أمّ حَسَن وَسَألها إذا كانت سَمعَت شَيئًا غريبًا وأجابَتْ بالنَّفي. عندَها عاد الرَّجُلُ السَّمين ونزلَ إلى دُكَّانِه.. فأطلقَ مَروان صانعُ الطَّبخَةِ الفاشلة ساقَيهِ للرِّيح.. ولم يَرَ أحَدٌ وَجهَه في الحَيِّ بَعدَ ذلك. بيدَ أنَّ وجودَ جثَّةِ صديقِهِ موسى وتزامُنِ فرارِهِ واختفائِه معَ حُدُوثِ الجَريمَة، سيجعلُهُ حتمًا طريدَةً عَتيدَةً لرجالِ التَحَرِّي.

كانَ المَشهَدُ غامضًا.. وكانَ صَعبًا في البدايةِ تأكيد مؤامرَةِ الاغتصاب! لقد قالت روجين للمُحقِّقين في المُستشفى، حيث اكتشَفوا الرّوفينول في جسَدِها، أنَّها مُتيقِّنَة من أنَّ مَروان هو الرّأس المُدبّر.. فقالوا لها أنَّ مروان اختفى هو الآخر، وهذا لن يُعفيَها من المُثول أمامَ القَضَاء! فخرَجَت من المُستشفى إلى النَّظارَةِ حيث بقيَت عشرَة أشهُرٍ تعاني الأمَرَّين قبل أن أطلقوا سَرَاحَها على أنَّها مُعفاة منَ العِقاب. لقد عملَتْ ظروفُ الحَياةِ تحالفًا وَحشيًّا ضدَّ هذه الحَسناء التركيَّة روجين آتشي، وحاصَرَتْها من كلِّ ناحيَة، وصوَّبَتْ نحوَها أصابعَ الاتّهام! وهكذا تبدو الحَيَاةُ أحيانًا عَشيقةٌ مزاجيَّة عبَثيَّة في تفضيلاتِها.. تختارُ الأشرار وتَستَثني الأخيار، تُدلِّلُ الظالمين وتبطُشُ بالمَظلومين، تعاشِرُ التَوحُّشَ وتنفرُ منَ الإنسانيَّة!! لقد أهدَتِ الحَياةُ الجَمَالَ إلى روجين وَرْدةً لطيفةً فاتنَة.. ثمَّ أثارَت غَيْرَةَ التُجَّارِ بائِعِي الوُرودِ عليها. لم تأتِ الفلِسطينيَّتان ليلى ونُهاد لزيارَتِها في السِّجن، ولم تعرفْ عن مَولودِها مُصطفى شَيئًا! ويبدو أنَّ السّيناريو نفسَه يُلاحقُها أنَّى ذهبَتْ تَعويذَةَ شؤم. في بيتِ الرّاسِي كانتِ التَّعويذةُ "رومنسيَّةً".. وعندَ ليلى ونُهاد باتَتْ داميةً متوَحِّشَة. كانت في السِّجنِ تحادثُ طِفلَها.. ثمَّ يَنتابُها الهَذَيانُ حتى الصُّراخ. وعَنَّ لها الانتِحار ذاتَ يَوم! فشلَتْ. وأنقذَتْها إحدى السَّجينات عندَما علَّقت نفسَها بشَرشَفٍ قماشِيّ في قضبانِ الشبَّاكِ العالي مع السَّقف. قالت لها السَّجينَة:

– لماذا تفعَلينَ بنفسِكِ هكذا؟ ستخرُجين من هنا، وأنتِ شابَّة وَجَميلة والمُستقبَلُ أمامَك.

وأجابَتْ روجين:

– هذه هي مُصيبَتي.. ولَعنَتي. سيَبقى الجَمالُ سَببَ بلائِي. أريدُ أن أتخلَّصَ منه.

فقالت لها السَّجينة:

– بالعكس.. هذِه نِعمَة! الجمَالُ سلاحٌ فتَّاكٌ وسيفٌ ذو حَدَّين إن أحسَنتِ استِعمالَه، وحَارَبْتِ فيهِ بذكاءٍ وفِطنة.

وهكذا بدأَت أرواحُ السِّجنُ تسكنُها. ومنطقُ المَسجونات، على خلفيّاتِ مشاكلهنّ وجناياتِهنّ، يَغزو عقلَ روجين ويَصبغُ حياتَها وذهنَها البَريءَ بمَنطقٍ هجومِيٍّ النَّزعَة شُجاع. الحياةُ شرِّيرَة والمُجاهِدونَ الغالبون في مَيَادينِها وساحاتِها أشرار! تمامًا كساحَةِ المَعرَكَة.. لا النّاسكُ ولا الشّاعر ولا المُرَبِّي ولا أستاذ الموسيقى يقفزونَ ويَعدونَ في أرضِ المَعرَكة.. وإنَّما المُحاربون الشَّرسونَ الأقوياء!! وهذا المنطقُ ضَخَّ طاقةً جَديدةً في حَيَاةِ روجين، وتصميمًا راسِخًا.. وتفاؤُلاً قلِقًا بضرورةِ الاستمرار والمُجاهدَة. تعلَّمَتْ في السِّجن من إحدَاهُنّ الرَّقصَ الشَّرقِيّ.. وفي غضونِ ثلاثةِ أشهر كانت ترقصُ وتُبدِعُ وتهُزُّ خَصرَها وثَديَيها بجاذبيَّةٍ آسِرَة فاقَتْ مُعلِّمتَها بأشواط. قالت لها معلِّمتُها السَّجينة:

– أنتِ مَوهوبةٌ وذَكيَّة.. والآنَ راقصَة مُثيرَة. لا تخافي.. تستطيعين أن تفعلي الكثيرَ منَ الأشْيَاء في الحَياة.

*****

وفي اليومِ الذي خرَجَتْ فيه روجين آتشي إلى الحُريَّة، ولا تدري كيفَ ولماذا! ذهبَتْ إلى شُقَّةِ الفَتَاتَين ليلى ونُهاد.. وكانتِ الطَّامةُ الكُبرى!! سُكَّانٌ جدُد في شقَّةِ الفلِسطينِيَّتَن!! سألتِ المُعلِّم خليل، فأجابَها:

– صدِّقيني يا حبيبَتي روجين.. لقد رَحلتْ ليلى ونُهاد بعد الحادثة بشَهر. لقد كرهَتا البَيت. ولم تقولا لنا إلى أين.. وبالتَّأكيد طفلُكِ مَعَهُما.

صمتَ قليلاً يتأمَّلُ عَينَيها الدَّامعَتين.. ثمَّ أضاف:

– لقد تركَتا عَمَلَهُما في بيروت أيضًا. لقد قالت ليلى لأمّ حسَن أنَّهما مُسافرَتان إلى الكوَيت.

وراحَتِ روجين تمشي تائِهَةً في شوارع المَدينة بلا هدَف. تبكي بمَرارَةٍ وتكفكِفُ دموعَها.. وهي جاهلةٌ أنَّ الحَيَاةَ غيَّرَت رأيَها من نَحوِها.. وهي على وشَكِ أن تُعطيَها فرصَةً جَديدَةً جميلة. فهناكَ قربَ الحَديقَةِ الكبيرَة.. بينَ الباركينغ والبنايَةِ القديمَة كانَتِ الكاميراتُ كحَشَراتٍ عملاقةٍ متناثرَةً بينَ نساءٍ ورجالٍ أنيقين.. وحَشدٌ يُشاهدون مِن بَعيد.. كانوا يُصَوِّرون لقطةً من فيلم. رَأتْ روجين المُخرجَ يَغضبُ ويطلبُ منَ الأنيقي الهندام أن يُكرِّروا الأمرَ نفسَه. وَحَانتْ منه التِفاتة عن غيرِ قصدٍ وهو يحُكُّ ذقنَه.. فرأى تَحتَ الشَّجَرَةِ جَمَالاً شاحبًا كئيبًا.. لا هو شرقيّ ولا غربيّ.. فيه سِحرٌ وغموض.. فيه رُوْحٌ وغِوَايَة. كأنَّ السَّماءَ أرْسلَتْ إليه هديَّة!

– أنتِ هناك تحتَ الشَّجَرَة.. يا حُلوَه.. تعالي تعالي. نادى المُخرجُ روجين.

وكانت هذه اللّحظَة مفصليَّةً تاريخيَّةً في حياةِ الحَسناء التُركيَّة، بل هي الرَّابطُ الذي شَكلَ الماضي البائسَ بالمُستَقبلِ المُشرق، والسِّحرُ المُبدِعُ الذي حَوَّلَ روجين آتشي إلى الفنَّانة المَعروفَة روجا، أميرَةِ الإغراء والأنوثَة.

*****

الورقة التاسعة

لا أحَـدَ يَستَـحقُّ دُموعَـك،
ولو استحقَّـهَـا..
فهو لن يَدَعَـكَ تـذرُفَـها.

غابرييل غارسيا ماركيز

إذا كنتَ تُـريدُ أن تكونَ ذا وَجهَين..
فاجْعَلْ على الأقلّ واحدَهُما جَميلاً.

مارلين مونرو

إيميه جَبُّور (١٢ تمّوز ١٩٦٩ – ١٩ تشرين الأوّل ٢٠١٥).

المَصدرُ الأساسيّ للمعلومات الواردَة في هذا الفصل وما يليه.. هو بعضُ أصدقاء وأقارب السَيِّدة إيميه جَبُّور مُهندسَة الدّيكور المَعروفَة، ومالكَة شركة J.DECO VIEW للتَّصميم الدَّاخِلي.

طفولةُ الشَّقراءِ النَّاعِمَة ذاتِ العَيْنَينِ العسَلِيَّتَين إيميه جَبُّور في مسقِطِ رأسِها في بلدَتِها بعَبدات، طفولةٌ عاديَّة جدًّا. ما كانَ يُميِّزُها عن مُجايليها رومنسيَّةُ الشَّخصيَّة وعشقٌ لِفَنِّ الرَّسم والموسيقى العاطفيَّة، وبَحَّةُ صَوتٍ رَخيمَةٌ مُثيرَة. كانتْ طِفلةً شَقيَّة مرحَة "مَهضومَة"، متألِّقةً في ذكائِها المَدرَسيّ، مُدلَّلةً جدًّا عندَ والِديها. وعندَما قفَزَتْ خارجَ حَديقةِ الطّفولة إلى ملاعبِ المُراهَقَة اكتشَفَتْ عناصرَ الجاذبيَّةِ فيها. غيرَةُ الصَّبايا نبوءَةٌ بأنَّها الأجمَل، وشَوقُ الصِّبيَةِ المُحَوِّمِين تفسيرٌ للنُّبُوْءَة، ونظرَاتُ إعجابِ النِّسْوَةِ النَّاضِجات في الحَيِّ.. شَهَادةٌ مُصَدَّقة تثبتُ بأنَّها طيفٌ من مَملكَةِ عرَائسِ الجَمَال: أفروديت وفينوس وعَشتار. وَفَهمَتْ إيميه لُعبَةَ التَّأثير بالغَزَلِ الصّامِت، وأتقنَتِ استِخدامَها، فتألَّبَ حَولَها العُشَّاقُ الوالهون، ومنهم أولادُ أكابر وأثرياء، وهيَ ثمَرَةٌ يانِعَةٌ شَهيَّةٌ في غصنٍ عالٍ لا تصلُ إليها أيادي الأشواقِ الزَّاغبَةِ القَصيرَة. وكانَ الكبرياءُ ظِلاًّ رَفيقًا لحُسْنٍ يليقُ بهِ الكبرياء. ولكن.. (لكَ يَومٌ يا ظالم!) هذا الإباءُ والتَفاخر على فتَيَاتِ جيلِ إيميه كانَ خطواتٍ غيرَ واعيَةٍ.. وعلى قابِ قوسين أو أدنى.. من حافَّةِ هاويَةِ غَيث الرَّاسي التي تشبهُ واديًا مَفقودًا في زَمَنٍ ما ومكانٍ ما.. لم تستَطِعْ إيميه الخروجَ منه إلى حَيَاةٍ صَحيحَةٍ طبيعيَّة. الدُّنيا نَصيب! ونصيبُ إيميه جَبُّور انتهَى في دوَّامةَ غيث الرَّاسي. عندما رأتهُ للمَرَّةِ الأولى في بدايةِ عِشرينِيَّاتِهِ في تلكَ السَّهرَةِ المَشؤومةِ في بَيتِها معَ قريبَتِهِ قالَ لها قلبُها: "هذا هو". والموهوبون عادةً أصحابُ ذائقةٍ في كلِّ شَيْء.. في الألوانِ والموسيقى والأناقة والطّابع واختيارِ الدّبلوماسيّاتِ اللّطيفة المُناسبَة، وفي الحُبِّ أيضًا لهم ذائقة لا يفهمُها عامّةُ النّاس، وذَوقُهم صَعبٌ جدًّا. ولذا يتَّهمونَهم بالسُّوَيداء والمِزاجيَّة وربَّما الجُنون! وذائقةُ إيميه العاطفيَّة كانتْ تفتِّشُ حولَها بينَ الشّباب عن ضالّتِها.. وكانت تُغَربلُ و"تُكَنسِلُ"! لمْ تجدْ واحِدًا يرقى لمُستوى تلكَ الذّائقةِ المَشحوذة بأنواعِ الفنون الشَتَّى. تمامًا كالذي يتعوَّدُ الموسيقى الكلاسيكيَّة والجاز والبلوز والطَّرَبَ الأصيلَ لن يَهُزَّهُ ضَجيجُ مَعادِنِ الفَقرِ الإبداعِيِّ الرَّاهِن. ما إن رأتْ غَيث الرّاسي انتَفَضَ شَيْءٌ ما في ذاتِها! أهو "سِنسِرِ الإنذار" بأنَّ هذا يناسْبُ ويُوافِق؟ أهوَ الحُبُّ منَ النَّظرَةِ الأولى؟ لا تدري الأنوثةُ أحيانًا ما سِرُّ جاذبيَّةِ رَجُلٍ ما. وعندما يَتيهُ السُّؤالُ في بَحرِ العَيْنَين وجغرافيا القامَةِ ولغةِ الحَركاتِ المُفسِّرَةِ للشَّخصيَّة تكونُ الأنوثةُ عندئذٍ قد أصبَحتْ داخلَ أسوارِ مَملكةِ الحُبّ. حادثها آنذاك ومازَحَها كثيرًا

وراقصَها.. وارتاحَ له مِزاجُها حتى أنَّها عادَت بعدَ أيّامٍ واتَّصلَت بقريبَتِهِ هاتفيًّا تسألُ عنه.. ولكنَّهُ كانَ قد رَحَل! هكذا كغَيمَةٍ ماطرَةٍ في شَهرِ آب، كلوحةٍ منَ اللُّهاثِ على الزُّجاجِ لوَجهٍ جَميلٍ.. ثمَّ مَحَتْها أناملُ عَبَثِ المَقدور. ولكنَّ النَّصيبَ لا بُدَّ أن يُصيب في النِّهاية. فغيَّرَ المُقدَّرُ العابثُ رأيَهُ! وعادَ فجَمَعَها بهِ بعدَ عامٍ ونصفِ العام في أحدِ المَهرجاناتِ الرِّياضيَّةِ في بلدةِ الزُّوْق السَّاحليَّة. وعندَما سمِعَتِ المِذياعَ يلفظُ اسمَهُ كلاعِبٍ في فريقِ (مرفأ الضبْيِّه) حَفَقَ قلبُها بشِدَّة! أتُراهُ هو لا سِواه؟ ذلكَ "الغَيْث" الذي حَرَمَتنا الظّروفُ من جودِهِ، والذي نفَذَ إلى أعماقِنا منذ اللَّحظَةِ البِكر؟ وتحوَّلَتْ عيناها العَسَليَّتَان إلى عُصفورَين قلِقَينِ يطيران إلى وُجُوهِ اللاَّعبين في المَلعَب. جالسةً هناكَ على مَقعدِها بجانبِ ابنةِ عمَّتِها على المُدَرَّج، وَجَدَتْهُ! اللُّغزُ نفسُه.. والسُّؤالُ نفسُه.. وأيضًا المتاهةُ عَينُها! حادَثت نفسَها.. ألِهذِه الصّدفة مَعنًى ما؟ كيفَ السَّبيلُ إليه؟ هل أذهبُ أنا إليهِ أو أنسى موضوعَه وأدَعُ الحياةَ تتابعُ سَيرَها الطَّبيعيّ؟ ولكنَّ اللِّقاءَ الآن إن هو إلاّ السَّيرُ الطَّبيعيُّ للحَياة!! ماذا تقولُ ابنَةُ عَمَّتي بجانِبي والشَابَّان الصَّديقانِ مَعَنا؟! منطقُ الغَرَامِ في الثَّمانيناتِ غَيْرُهُ في الألفيَّات! أسئِلَةٌ شَتَّى تنافَسَتْ على إقناعِ إيميه بخُلاصَةٍ ما. لم تكن تتمتَّعُ بأحداثِ المُباراةِ الماراثونيَّة في الحَلبَةِ بقَدرِ ما كانت تبحَثُ عن طريقةٍ لقطفِ كلِمَةٍ مع غَيث. حتى اللَّحظةِ الأخيرَة كانَ التَرَدُّدُ يشلُّها، والإحراجُ أمامَ رُفقائِها عائِقٌ إلى حَدٍّ ما، ولكنَّ مُعادلاتِ الحُبِّ تصُحُّ في النِّهاية. أذعنَتْ إيميه لقدَرِها إذعانَ الشَّاةِ وهيَ في طريقِها مَسُوقة إلى المَسلَخ! فإيميه جبُّور هي بطلةُ المَلحَمَةِ التَاريخيَّة التي حدَثَتْ في ١٩ تشرين الأوَّل ٢٠١٥ الغَراميَّة.

أوصَلَ غيث إيميه بسَيَّارتِهِ الرِّيتمو الديكابوتابل الحَمراء إلى بَيتِ عَمَّتِها في أدونيس، بعدَ أن تناولا العِشاءَ معًا في مَطعمٍ في جونيه، ثمَّ عادَ إلى بَيتِه. وما إن وَصَلا كلاهما إلى غرفتِهما حتى أسرَعَ كلٌّ منهما إلى الجلوسِ بقربِ الهاتف! هيَ تُريدُ أن تتَّصِلَ به، تمُدُّ يدَها إلى الهاتف ثمَّ تخونُها الشَّجَاعَة، وكذلكَ هو ينتظرُها وغرورُهُ يقولُ له بأنَّها هي البادئَة أوّلاً. لم تتَّصِلْ هي. وحتى هذِه المَرْحَلَةِ أظهرَت ضعفًا بما فيهِ الكِفاية. ومهما كانتِ المَرأةُ مُتيَّمَةً بالرَّجُل فإيتيكيت العلاقة يوجبُ أن يكونَ هو المُبادِرَ أوَّلاً.

أمسَكَ سَمَّاعةَ التِلِفون، وهو الشُّجَاعُ صاحبُ الطُّموحاتِ الأثيريَّةِ أُتعثِرُه امرأة! ونقَرَ على الأرقام:

– آلو.. منِ المتَّصِل؟ سَألتْ إيميه وهي تَعلمُ يقينًا أنَّه غيث. وأجابَها:

– صَوتُكِ جَميل على التِلِفون. لديكِ بَحَّةٌ في صَوتِكِ آسِرَة.

– غَيث! قالَتها بنَبرَةٍ فيها دَلَع.

– لا زلتِ سَهرانة! ماذا تفعلين؟

– مُستلقيَة بجانِبِ التِلِفون؟

– معَ مَن كنتِ تتحادَثين يا مُحتالة؟! سألها مازحًا.

– كنتُ.. كنتُ أنتظرُ اتِّصالَك. قالتها بتردُّد.

– لماذا؟ هل نسيتِ أن تقولي لي شَيئًا على العَشَاء؟

– أريدُ أن أشكرَك على هذِه الأمسِيَة اللَّطيفة.. لقد تصرَّفتَ معي بطريقةٍ مُميَّزَة.

– النّاسُ المُمَيَّزون جديرون بالمُعاملة المُمَيَّزَة. قالَ لها، ثمَّ أضاف:

– أنا لم أفعَلْ شيئًا.. هي الصّدفة!

– ماذا تفعلُ الآن؟ سألَتْه.

– مُستلقٍ فوقَ تَختي. إسمعي أنا لن أنتظرَ للأسبوع القادم لأرَاكِ.. سأصحَبُكِ معي بعدَ غدٍ مساءً إلى مُبارَاةٍ في جُبَيل.. أوكاي؟

– ليتَ هذه المباراة كانت غدًا صَباحًا!

– أنتِ تذَكِّرينَني بأغنِيَةِ عبد الحليم حافظ..

– أيّ واحِدَة؟

– تلكَ التي يقولُ فيها.. مُشتَقلَك ونا لسَّه مْقابلَك.

– أصبَتْ.. ربَّما هذا هو لسانُ حالي.

وأضافَتْ بسُؤال:

– كيفَ تَصِفُ ما حدَثَ بَينَنا بسُرعة يا غَيث؟

– حَتمًا إعجاب. أجابَها باقتضاب.

– وهل أنتَ واثقٌ بأنّي مُعجَبَة بكَ؟ سألَتْهُ وَأيضًا بدَلَع.

– لا شَكَّ في ذلِك.

– لماذا؟ سألته.

– أوّلاً أنا الشَابّ الوَحيد والغريب الذي رَقصْتِ معَهُ في تِلكَ السَّهرَةِ في بَيتِكم.

– وثانيًا؟

– أنتِ منَ اتَّصَلَ بَعدَ رَحيلي ببَيتِ خالي تسألينَ عنِّي. وثالثًا أيضًا أنتِ المبادِرَةُ إليَّ هذا المَسَاء. هل نَسيتِ؟

– سَجِّل عندَكَ إذًا. أنتَ مُعجَبٌ بي.. ولأسبابٍ ثلاثةٍ أيضًا.

– ما هي.. لقد شَوَّقتِني؟

– أوَّلاً أنتَ لمْ تراقِصْ فتاةً غيري في السَّهرَةِ المَذكورَة!

– صَحِيح. وثانيًا؟

– ثانيًا.. أنتَ الذي دَعَوتَني إلى العِشَاء هذه اللَّيلة.. هل نَسيت؟

– وثالثًا؟ سألَها.

– أنتَ الذي اتَّصَلتَ بي الآن.

- مُمتاز! ثلاثة للجَميع.

- هل هذا سكور مُبارَاة في الكرَةِ الطَّائِرَة؟ سألتْهُ وهي تضحَكُ.

- لا.. إنَّها مُباراة غَراميَّة بَينَ غَيث الرّاسي وإيميه جَبُّور. أجابَها وهو يضحَكُ أيضًا.

ولم يَنتَهِ التَغازلُ بينَهما إلاَّ حوالى السّاعةِ الثَّالثة بعد مُنتصَفِ اللَّيل، عندَما راحَتْ ابنَةُ عَمَّتِها تتقلَّبُ فوقَ تَختِها في الغرفةِ معَها نِصفَ صاحيَةٍ، وهي تتَمتِمُ كأنَّها تحلُم:

- ألا زلتِ تتَحَادَثين معَ غَيثِكِ هذا؟ إذا كانَ المَوعِدُ الأوّلُ بَينكما هكذا.. فماذا لبَقيَّةِ المشوار؟ إنَّهُ الحُبُّ يا عَزيزَتي. وعادَتْ فغَطسَتْ في نومَةٍ عميقة.

في اليَوْمِ التَّالي مَسَاءً.. قبَعَتْ إيميه بجانبِ التِلِفون في الغرفةِ عندَ ابنَةِ عَمَّتِها منذ حلول الظّلام، والشَّوْق رَفيقٌ لطيفٌ ثَقيلٌ في آنٍ معًا. كانتْ تنتظرُ اتِّصَالَ غيث لتأكيدِ خُروجِهِما معًا إلى جُبَيل. قالت لها ابنَةُ عَمَّتِها:

- هنا الجَوُّ حارٌّ يا إيميه تَعَالي نجلسْ على الشُّرُفة. أينَ كانت هذه العاطِفةُ مُختَبِئَة؟ كانَ الجَميعُ واقِعًا بكِ.. فإذا بكِ أنتِ الآنَ واقِعَة بواحِدِهم!

فقالت إيميه لابنَةِ عَمَّتِها:

- غَيث شابّ مُمَيَّز.

- وهل هو أفضَل من فِراس.. ابنِ الوَزير؟! تكابرينَ عليهِ وهو ابنُ وَزير يا مَجنونة!!

غَرامُكِ السَّريع هذا مُحيِّر.

- إبنُ الوَزير لا يملكُ رُجُولةَ غيَث. أريدُ رَجُلاً يصنَعُ نفسَه بنَفسِه. أجابَتْ إيميه.

- لا تضعُفي هكذا بسُرعة يا ابنةَ خالي.. أنتِ لم تَختَبريهِ بَعد!

وفيما هما يتناوشانِ في الكلام رَنَّ جرَسُ الهاتف.. فمَدَّتْ إيميه يدَها بسرعةٍ وأخذت السَمَّاعة:

- آلو!

– آلو.. إيميه.. بَحَّةُ صَوتُكِ على التِلِفون تُجنِّنُ! هل تَعلَمين؟

– ماذا؟ سألته.

– إنِّي أفضِّلُ مُحادثَكِ على التِلِفون أكثر من كلامٍ وَجهًا لوَجه؟

– حقًّا! أينَ أنتَ؟ لماذا تأخَّرْتَ حتى اتَّصلتَ بي؟ قالت مُعاتبَةً.

– موعدُنا غدًا مساءً يا إيميه.. أنا اللَّيلة معَ الشَّباب في طبَرْجا نَتَعشَّى.

– صَحتَين سَلَف. أيَّ ساعةٍ أنتظرُكَ غدًا مَساءً؟ سألته.

– حوالي السَّابعة والنِّصف. المُبارَاة في التّاسعَة.

وهكذا اندَفَعَت سَفينَةُ الغرام بإيميه وغيث اندِفاعًا مَشبُوبًا لاهبًا جَريئًا نحو علاقةٍ مَحفوفةٍ مُضطربَةٍ طويلة. والحُبُّ تمامًا كالحَرْب.. إعلانُهُ رهنُ الإرادَةِ ونِهايتُهُ رَهنُ المَقادير. والمَقدورُ كانَ قاسيًا جدًّا نحوَ هذين العاشِقَين الذَكيَّين. والغرامُ حالةُ براءَةٍ.. فإذا فقدَ بَرَاءَتَه طرَدَتهُ رَبَّاتُ الحُبِّ خارجَ فردَوسِها الجَميل. والعاشِقُ المُتخابثُ قد تكونُ خسارتُه أكبرَ من ربحِهِ بكثير.. وربَّما يخسرُ كلَّ شيء. لأنَّ الاتِّفاقَ العاطفيّ ليسَ صفقةً خاسرة وأخرى رابحَةً هناك.. إنَّه اتّفاقُ العُمر والعُمْرُ لا ثمَنَ له! غيث وإيميه ذَكيَّان.. ولكنَّهما استخدَما ذكاءَهما في الحُبّ.. وهذه لعمري أمُّ الكبائر! والتَّشابهُ حَدَّ المُطابقة بينَ الذَّكاءِ في الحُبِّ والذَّكاءِ في الجنس يجعلُ الاثنَين حالَتَين غيرَ مَعقولَتَين.. إنَّهما خُرُوجٌ على القانون وجُنون. والعقلُ لا يتَحالفُ معَ الجُنون بل يأسُرُه ويَسبيهِ، وعندما يحاولُ التَّخابُثُ أن يصنعَ السَّعادةَ الطبيعيَّةَ الفِطريَّة يقضي عليها.

في مَسَاءِ اليَوْمِ التَّالي كانت إيميه قد ارتدَت لباسًا رياضيًّا مُثيرًا. يجبُ أن تكونَ على مستوى مزاجِ غَيث وأهوائه. سمِعَتْ زَمْيرَ سيَّارَةِ الرِّيتمو الحَمراء وهي لا زالت عندَ المَفرِقِ في بدايةِ الشَّارع، وثبَت إلى الشُّرفة ولوَّحَتْ بيَدِها.. والضَّوْءُ رَمَاديٌّ يودِّعُ النَّهَارَ ويُعانِقُ اللَّيل.. في حَيٍّ تخترقُ شُعاعاتُ المَغيبِ الأخيرَةُ غصُونَ الأشجار، كأنَّها تمُدُّ أذرُعَها ولا تريدُ أن تغرقَ وَرَاءَ الأفق. أنهَتْ تبَرُّجَها وتعَطَّرَتْ ودلفَتْ إليهِ وفتَحَتْ بابَ السيَّارةِ وجلسَتْ إلى جانبِهِ كأنَّها تجلسُ على العَرْش.. بل كأنَّها تُتَوَّجُ مَلكةَ جَمالٍ

في حَفلٍ مَهيب. الحُبُّ مَملكَةٌ والعاشِقُ مَليكُها. ولولا أنَّ الحُبَّ يجعَلُ أيَّ واحدٍ منّا ملكًا لما سَعَينا وراءَه! وانطلقَتِ السيَّارَةُ إلى جُبَيل. وفي الطّريق.. مالتْ إيميه بجَسَدِها إليه وهو يقود، ليسَ قصدًا منها بل رُغمًا عنها، لأنّ قطعةَ المغناطيس مُنجذبَةٌ أبدًا إلى رَفيقتِها. فمدَّ هوَ يمينَه من وراءِ رأسِها ووَضَعَها على كتِفِها.. فأرخَتْ رأسَها على كتِفِه. كانَ يُحادثُها.. وكانت تحاولُ أن تسمَعَ خَفَقاتِ قلبِه، ونبضَاتِ دَمِهِ، وزفرَاتِ أنفاسِه، كانت تحاول أن تسمَعَ كلَّ شيءٍ فيه لا يُسمَعُ بالأذن. وكانَ كلُّ شَيْءٍ بقربِهِ بالنِّسبَةِ إليها موسيقى سَاحِرَة. كانت تحاولُ أن تكونَ كيانًا أثيريًّا يخترقُ أعماقَه باحِثةً عن وُجودِها هناك؟ ثمَّ وَصَلا إلى نادي جُبَيل. جَلسَتْ هي في مَكانٍ على مَقعَدٍ خَشَبيٍّ قريبٍ تستطيعُ منه أن ترى كلَّ شَيْء، في ملعَبٍ بدائيٍّ ليسَ فيه مُدَرَّجات، وشَاهدَتْ أحداثَ المبَارَاة وهي تتناولُ البُزورَات ذات الحَبَّةِ الصَّغيرَة. وعندَما انتَهَتِ المباراة تنَحَّى غيث في رُكنٍ يَشرَبُ بعضَ المَاءِ ويُجفِّفُ نفسَه. جاءَت إيميه إليه.. وفوجِئَ هو بما شَرَعَتْ تفعلُه! أخذَتِ المِنشَفَة من يَدِهِ ورَاحَتْ تُجفِّفُ ذِرَاعَيْهِ وكتفَيهِ وجَبينَه، وَمَسَّدَتْ شَعرَه المبَلَّل تارَةً بالمِنشَفةِ وطورًا بيَدِها. واستَسْلَمَ هو لسِحرِ أنامِلِها. ثمَّ رَاحَت تفرُكُ لهُ عنُقَهُ وكتفَيهِ وأعلى ظهرِهِ، وتمرَّدَتْ عليها أناملُها فهرَبَتْ منها إلى أذنِهِ وَخدِّه.. وأغمَضَ هو عَينَيهِ ليَشْبَعَ من هزَّةِ النَّشْوَة. كانت تُريدُ أن توصِلَ رسَائِلَ بطريقةِ لمَسَاتِها. قال لها بلُطف:

– لقد استَرْجَعْتُ نَشَاطي، وأستَطيعُ الآنَ أن ألعَبَ مباراةً أخرى. شُكرًا لكِ إيميه.

– لا شُكرَ على واجِب يا بَطَل.. بل أنتَ بَطَلي. قالت له برومنسيَّة.

وأثناءَ خُرُوجِهما من النّادي استَوقفَتهُما سابين لاعبةٌ في فريقِ نادي (الكهرباء) وكانت تُشاهدُ المباراة. هيفاءُ سَمرَاءُ جَذَّابة. حَيَّتهُما ومدَّتْ يدَها وسلَّمَتْ على غَيث ثمَّ إيميه. قال غيث لإيميه:

– إيميه.. هذه سابين.

ثمّ نظرَ إلى سابين وقال:

– إيميه جَبُّور.. صَديقة قديمَة. تعارفنا منذ سَنَتَين وَتَصَادَقنا من يَوْمَين.

فقالت سابين مازحَةً:

– والزَّوَاج إن شَاءَ الله بعدَ عشر سنوات! وَضَحِكَ الجَميع.

وشعَرَ غَيث بالغَيْرَةِ في ضِحكَةِ إيميه الفاترَة. وتجَسَّدَ شُعورُه هذا عندَما سألته إيميه وهما عائِدَين في سيَّارةِ الرِّيتمو:

– لماذا قدَّمْتَ كلَّ هذا الشَّرْح لسابين عن تاريخ علاقتِنا؟ هل كنتُما صُحبَةً؟

لم يُعِرْ غيث غَيرَتَها هذه أيَّ اهتِمام، فهو نَشَأ على الثِّقةِ بالنَّفس لدَرجَةِ الوقاحَة. ستايل شَخصيَّتِه وظُرْفُهُ ورومنسيَّةُ كلامِه وبَساطتُه شكَّلوا إكسيرًا مؤثّرًا في المرأة. ولكنَّ غَيث هنا لا يَعبثُ معَ إيميه.. عندَها الكثِير مِمَّا أسرَ قلبَه وأقنَعَ عَقلَه.. وأفكارُه هادفةٌ نحوَها ومُثمرَة.. ولكن إلى حِين! وأمّا من ناحيةِ إيميه فقد أدركتْ انَّها صارت عاريَةَ النَّفسِ أمامَهُ، وَغَيرَتُها هذِهِ بَيَانٌ وبَلاغة بأنَّها مُتيَّمَةٌ به. وعندَما وَصلَتْ إلى بَيتِ عَمَّتِها ارتَخَت فوقَ مَضجَعِها والهاتف بجانبِها تنتَظِرُ أن تمضيَ بقيَّةَ السَّهرَة معَه. ولكنَّ غيث مرهقٌ جدًّا منَ المُبارَاة فغاصَ في بَحرِ نومِهِ حتى الأعماق. وبَدَأتْ عندئذٍ في وجدانِها مَرْحلةُ اتِّقادِ الشَّوْق نحو فتى الأحلام هذا. لقد قفزَتْ بسُرعَةٍ من الإعجابِ إلى الانبهار فالغَيْرَة ثمَّ الشَّوق، وهذه كلُّها تَوليفةُ الحُبّ في سلَّةٍ واحدَة. وهي التي كانت تتكابر على طابورٍ منَ المُعجَبين، وبينَهم ابنُ الوَزير فِراس. ثمَّ خَرَجا مَرَّتَين أيضًا إلى مُبَارَاتَين وهو الذي كانَ يدعوها للذَّهابِ معه، وفي المَرَّةِ الثالثة، وكانت قد عادَتْ إلى بعبدات بيتِ أهلِها، اتَّصلَ بها وقالَ لها:

– لن نودِّعَ الصَّيفَ قبلَ أن نقضِيَ يومَ الأحَد على البَحر.. هل تُحِبِّينَ البَحر؟ سألَها.

– طبعًا أحِبُّ البَحر. فالبَحرُ يشبهُ حُبَّنا. أجابتْ مُرَحِّبَة بدَعوتِهِ.

– كيف؟ لم افهَمِ الفِكرَة.

– البَحْرُ مَجنونٌ وحُرٌّ ولا حُدودَ له.. وهكذا.. صداقتُنا يا غَيث.

وجاءَ يومُ الأحد.. واصطَحَبَها معهُ إلى شَاطئِ بَلدَةِ "الحِلوه"[٢] السَّاحليَّة. وأمضَيا يَومًا رائِعًا، وسَبَحَا ولَعِبا بالمَاءِ كثِيْرًا وَضَحِكا، ثمَّ أخذا حَمَّامَ شَمسٍ بَعدَ أن فَرَكَ كلٌّ منهما ظَهرَ الآخر ودَهنَه بالزَّيتِ الواقي. سألها:

– هل ما زلنا في مَرحَلةِ الصَّدَاقة إيميه؟

– لا.. نحن أكثرُ من أصدقاء.. نحنُ أكثرُ من صُحبَةٍ وأقلُّ من عاشِقَين.

قالَ لها وهو ينظرُ في عينَيها نظراتٍ فيها من الإعجابِ الصّادِقِ الكثير:

– أنتِ مُمَيَّزَة إيميه. أنتِ أكثر من هذا بكثير.

وقرَّبَ شَفَتَيهِ.. وعيناهُما ستارتان مُسدَلتان على كواليسِ التَّخاطُبِ الدّاخليِّ الحَقيقيّ.. وطبَعَ قبلةً دافئَةً لطيفَةً فوقَ شَفَتَيْها. ابتَعَدَ وقال:

– أنتِ حَبيْبَةُ العُمْر إيمِيه.

ثمَّ غيَّرَ مَوضوعَ الحَدِيث:

– آه تذكَّرْت! نحن مَدعوُّون، آخرَ هذا الشَّهر، مع الشَّبَاب إلى سَهْرَةٍ رائِعَة للفنَّان مايز البَيَّاع في الـــ White fun club. لقد أصَرُّوا أن تكوني مَعِي. لقد أصبَحَ لكِ جُمْهُور في مُجتمعِنا الرِّياضيّ. سيأتون كلاًّ مَعَهُ صَديقتُه.

فتنَهَّدَت ثمَّ قالت:

– هل هذا يعني أنِّي سأنتظرُ لآخر الشَّهر لأرَاك؟ قالتها بدَلال.

فضَحِكَ ضِحكةَ الواثِقِ من نفسِه. وأجابَها:

– لا.. طبعًا لا. سنلتقي لحِينِه كثِيرًا.

– خَمَّنْت.

صَمَتت قليلاً وعادَتْ فقالت:

---

[٢] بلدة ساحليَّة شماليّ جُبيل.

– في كلِّ المناسباتِ من الآنَ وصاعِدًا.. رِجلي على رجلِكَ. وإيَّاكَ ثمَّ إيَّاكَ أن تخرجَ معَ سِواي.

– وهل أترُكُ القَمَرَ لأسْهَرَ معَ حُباحِبِ اللَّيل؟ فأجَابته:

– معَ سابين.. الرِّياضيَّة السَّمرَاء مثلاً!

– آه.. سابين. صَمَتَ ثمَّ قال:

– سابين صَديقةُ عبدو شابٍّ معنا في الفريق. وسيكونان أيضًا في سَهرَةِ مايز البَيَّاع بالتأكيد.

ومرَّتِ الأيَّامُ سُرَاعًا.. وأزَفَ موعِدُ هذِه السَّهرَة المنتظرَة. وكالعادَةِ جاءَت الرِّيتمو الحَمرَاء بقيادَةِ الفارسِ الوَسيم غَيث، كأنَّها سَيَّارةُ المَلِكَة. كانت إيميه تُعارِكُ مِرآتَهَا لتبدُوَ أحجيةً صَعبةً وسرًّا مشوِّقًا للرُّجُولةِ في السَّهْرَة. وما إن خَرَجَتْ من بَوَّابةِ الحَديقة واقترَبَت منَ الرِّيتمو وفتحَت بابَ السَيَّارَة.. قالَ لها غَيث:

– ساحرَة!

ورَأتْ في ناظرَيهِ دَهشَةً وشَوقًا لم ترَهُما في اللِّقاءَات السَّابقة. وانطلقَ بها. ولكنّ مفاجأةً كبرى لم تحسِبْ لها إيميه حِسابًا البتّة.. كانت قد نَصَبَتْ لها كمينًا منذ بدايةِ السَّهرَة! حيثُ حانتْ منها التِفاتة، فوقعَ نظرُها على ابنِ الوَزير فِراس معَ صَديقِهِ وفتاتَين بينَ الحاضِرين في هذِهِ الحَفلةِ الطَّرَبيَّةِ الكازانوفيَّة. وفِراس بدَورِهِ رآها وأرسَلَ بنَظرَاتِهِ سَلاماتِهِ الحارَّة. كانَ الجَميعُ جالسًا يتناولون الطَّعام على أنغامِ الموسيقى اللَّطيفة. والنِّسَاءُ يَفهَمْنَ جيِّدًا دَخيلاتِ بَعضِهِنّ. لاحظت إيميه أنَّ سابين تكثِرُ من الكلام والمزاح مع غيث.. ولو في أمورٍ عاديَّة أو في شُؤُوْنِ الرِّياضَة. مَرَّ قليلٌ منَ الوَقت.. ثمَّ راحوا يتوافدونَ إلى حَلبَةِ الرَّقص عندَما صدَحَتِ الموسيقى الغربيَّة.. والذُّروَةُ الطَّرَبيَّةُ مَتروكةٌ للنِّهايَة. غيث راحَ يرقصُ معَ إيميه وسابين معَ عبدو وثلَّةٌ منَ الثُنائيَّات أيضًا. ولكنَّ ابنَ الوَزير كانَ يرقصُ معَ صديقتِهِ على مَقرُبَةٍ من مَجموعةِ الرِّياضِيِّين. خفقَ قلبُ إيميه بشدَّة.. كأنَّها مُحاصرَة بينَ سابين من جهةٍ وابنِ الوزير

فِراس من جهةٍ أخرى. بَدَأ الشَّيْطانُ يُحَرِّكُ ذكاءَ الأنوثةِ الغَيْرَى، ويَهمسُ لها أن تستَعمِلَ ابنَ الوَزير لتُحاربَ سابين وتُنهيَ ثرْثَراتِها الفضوليَّةَ التَافِهَة.. حيثُ شَعَرَتْ بأنَّ غَيث نَسِيَها وأهانَ كبرياءَها في تلكَ الجَمْعَةِ الرِّياضيَّة على طاولةٍ واحدة. كانتِ الأنغامُ موجَةً هادئَةً وموجةً صاخبَة. والفنّان مايز البَيَّاع لن يُطِلَّ على المسرَح قبلَ مُنتصَفِ اللّيل. فأرسَلَتْ إيميه وهي واقفة معَ غيث، وغيرَ مَرَّةٍ، نظرَةً إلى ابنِ الوَزير فِراس الذي كانَ يراقِصُ فتاتَه وعيناهُ تتصيَّدانِ فرصةً نحوَ إيميه.. فَظنَّهَا دَعوَةً منها إليه! وكانَ تَصَرُّفُها هذا ذَكاءً متهَوِّرًا.

*****